

البطل الشعبي «وليام تل» بين الخيال والحقيقة

الدكتور

محمد شوقي محمد خليفة

يحكى أن شخصاً كان يعيش في قلب جبال الألب، يعمل في رعي الغنم والصيد اسمه (وليام تل)، وكان يسكن في وادٍ ليس بعيداً عن بحيرة الكانتونات الأربعة، وهي الولايات الأربعة الأولى التي تكوّن منها الاتحاد السويسري في بعد .

وفي ذلك الوقت كانت أسرة (هابسبورج) تحكم هذه الولايات وتثبت نفوذها القوي عن طريق حاكم لكل ولاية، هو بمثابة النائب أو الممثل للأسرة الملكية وكان (Hermann Gessler von Bruneck) واحد من هؤلاء الحكام المسؤولين عن ولايتي (يوري وشفافيتز). وإمعاناً في الظلم والقسوة وإذلال السكان أقام هذا الحاكم عموداً في أحد ميادين مدينة (آلتدورف - Altdorf) عاصمة ولاية (يوري) ووضع على هذا العمود قبعته. وكان على المارة أن يركعوا تحية لهذا العمود «المقبع» كعلامة من علامات الاحترام والطاعة للحاكم (جسلر) نفسه وللأسرة النمساوية الملكية.

وحدث في أحد الأيام أن (تل) كان ماراً في ذلك الميدان مع ابنه الأصغر (فالتر) ولم يعر القبعة أي اهتمام، ولم يقم بتأدية التحية المطلوبة. . . فيقوم

الحراس بالقبض عليه، وتوجيه تهمة الخيانة إليه.. ولا تفيد توسلات المواطنين ولا الشهادة الطيبة التي شهدوها لصالح (تل) في إطلاق سراحه..

ولسوء حظه كان (جسلر) متواجداً ذلك اليوم في المدينة وعلم بفعلة (تل) وإهانتة للقبعة. ويعرف (جسلر) أن (تل) أمهر من يستعمل السهم.. حتى أن سهمه لا يخطئ أبداً هدفه.. حتى لو كان على بعد مائة قدم.

وكعقوبة على جرميته أمره (جسلر) أن يصوب سهمه على تفاهة موضوعه على رأس ابنه (فالتر) وهو على بعد مائة قدم.

ويقوم تابعي (جسلر) بمحاولة تنبيه عن هذا الأمر الذي سيزيد عدد الناقمين عليهم.. ولكنه لا يأبه لنصائحهم.. وبعد أن يتغلب (تل) على ذلك الصراع النفسي الذي ألم به.. وضع سهماً ثانياً في جعبته.. ثم صوب السهم الأول إلى التفاحة الموضوعة على رأس ابنه فأصابها وقسمها إلى نصفين.. فاهتاج الناس بعدها من الفرحة ونجاة الصبي.

ولكن (جسلر) كان قد رأى (تل) يضع السهم الثاني في جعبته فسأله عن سبب ذلك. فرد (تل) بأنه كان سيرمي به بالسهم الثاني لو أصاب ابنه بالسهم الأول. وبعد هذا الاعتراف تروى الأسطورة قصة القبض على (تل) ثم هربه كما يلي:

قام (جسلر) وحراسه بأخذ (تل) إلى السجن في القصر الذي يقع في (كوس ناخت - Kubnacht) على الجانب الآخر من البحيرة.

وما إن تركوا الشاطئ حتى هبت عاصفة قوية على القارب الذي يستقلونه.. ولكن (جسلر) يعرف أن (تل) ماهر أيضاً في التجديف.. فيأمره أن يجدف وأن يوصلهم بسلام إلى الشاطئ الآخر. قام (تل) بالتجديف حتى إذ ما اقترب من الشاطئ الآخر قفز من القارب ومنع الآخرين من النزول بأن دفع القارب للخلف مرة أخرى فتعذر عليهم النزول.. وبذلك استطاع أن يهرب.

وبعد صعوبات كبيرة ينجح (جسler) ورجاله في التغلب على الأمواج والرياح وينزلون من القارب.

ولكي يصل (جسler) وتابعوه إلى القصر، كان عليهم أن يمروا من خلال ممر في أحد الغابات، وكان (تل) يعرف كل هذه المسالك والممرات لطبيعة عمله بالرعي والصيد. فاختبأ خلف أحد الأشجار، إلى أن مر (جسler) فصب السهم نحوه فأصابه في قلبه فخر صريعاً، وهكذا مات هذا الطاغية وعاش الناس بعد ذلك عيشة آمنة بسيطة.

وقد تناولت كثير من الأعمال الأدبية الأوروبية الأسطورة بالتحليل مستفيدة كثيراً من العناصر الحية الموجودة فيها، مثل:

— مقاومة تل: وهي إلى جانب عناصر أخرى تعبر عن الشخصية الثورية في سلوك (وليام تل).

— البراعة التي تمتع بها في التصويب: فهنا تمجيد للسهم كأداة رياضية وفي نفس الوقت كأداة لضمان الاستقلال الشخصي والحرية السياسية. إن سلاح البطل وهو (السهم) جزء لا يتجزأ منه، لأنه الوسيلة التي حققت إرادته.

— قتل الحاكم: وهو النهاية الطبيعية لكل طاغية جبار لا يأخذ مصلحة شعبه في الاعتبار.

ونحن في هذه الدراسة سنتناول الأسطورة بالتوضيح من ناحيتين مختلفتين:

أولاً — أصل الأسطورة تاريخياً. وتتبعها في دول أوروبية مختلفة.

ثانياً — تناول شخصية (تل) بالتحليل من الناحية الأدبية من زوايا مختلفة عند الأديب الألماني فريدرش شيللر.

يجمع علماء التاريخ^(١) إلى أنه لم يثبت وجود تاريخي لشخصية (وليام تل) الذي تناقلت الحكايات اسمه . . ولم يقرروا أن أسرة هابسبورج استعبدت سكان ولاية (يوري) . . ولم يجدوا أيضاً في المستندات التاريخية أية إشارة إلى حاكم يسمى (جسلر) أو إلى اغتيال حاكم بهذا الاسم . لذلك فإن معظم أحداث رواية (وليام تل) لا تستند على أصول تاريخية كاملة . . اللهم إلا على بعض الأحداث التاريخية المتناثرة والروافد الأسطورية الأوروبية المختلفة . والتي وجد الأدباء في أحداثها مادة خصبة للتأليف وإعادة الصياغة حسب المكان والعصر والغرض الذي يهدفون إليه .

وأول وأهم كتاب احتوى على قصة مشابهة لشخصية (وليام تل) لكن سابقة لها هو كتاب (Gesta Danorum) لمؤلفه (ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus) وهو من الكتاب والمؤرخين الأوائل في الدانمارك وقد عاش تقريباً في الفترة من (١١٤٠ - ١٢٢٠) . . وقد وردت القصة كما يلي :

كان (توكو) أحد الرعاة الماهرين في استعمال السهم يعمل في خدمة الملك (بلوتوت) وأخذ يتفاخر أمام زملائه بأن سهمه لا يخطئ هدفه أبداً حتى ولو كان تفاحة مثبتة على عمود خشبي . . وأمام هذا التفاخر أخذ الحاسدون يحشون عليه عند الملك . . فأمر الملك أن يضع (توكو) تفاحة على رأس ابنه ويصوب السهم نحوها . . فنفذ (توكو) أمر الملك . . وقبلها كان قد وضع أسهماً أخرى في جعبته . . فسأله الملك عنها، فرد (توكو) : لكي أنتقم بها لنفسي عندما أخطئ التصويب .

من خلال أحداث القصة السابقة نجد أن هناك تشابهاً في الأصول الأسطورية عند كل من (توكو) و(تل)، ويمكن الأصح أن نعتبر رواية (توكو) أحد المناهل الفولكلورية الرئيسية التي اعتمد عليها أدباء مثل : فريدريش شيللر

(١) - موسوعة تاريخ العالم، ح ٣، ص ٨٢٣ - ٨٦٨

- أوروبا العصور الوسطى ح ١ - ص ٥٩٧ .

في مسرحيته وليام تل التي انتهى من كتابتها عام ١٨٠٤ والتي عرضت لأول مرة على مسرح مدينة فايمار في ١٧ آذار/مارس ١٨٠٤^(١)، وأولن شليجر في روايته (بالناتوك) التي كتبها عام ١٨٠٩^(٢).

وبالطبع هناك أسلاف كثيرون لـ (تل) غير (توكو) ممن يمكن الاستدلال عليهم في كتب التراث الشعبي الاسكندينيافي^(٣).

فإذا رجعنا إلى القرن الحادي عشر فإننا نجد أن الملك (سانت أولاف) أجبر أحد حاشيته وهو (اينريدي) أن يصوب سهمه على قرص خشبي موضوع على رأس ابنه وقام الملك (هارولد سيجوردارسون) بعمل مشابه بأن أمر أحد فرسانه أن يصوب على بندقة موضوعة على رأس أخيه.

وهكذا فإن المضمون في معظم الروايات السابقة متشابه، وتكرر الموتيفات بها، وإن اختلفت الأشكال والوسائل. ويذكر المؤرخ السويسري (أجيدوس تشودي Tschudi) في كتابه (Chronicon Helveticum) بأنه يعتقد أن أحداث (تل) الأصلية ترجع إلى عام ١٣٠٧.

وقد نستطيع أن ندخل شخصيات مثل: روين هود، السيد، عترة — بما عرف عنهم من براعة في استعمال السلاح وجهم للحرية والعدل... وبما نسجه الرواة ولكتاب من خيال حول بطولاتهم — في أسرة (توكو — تل).

ومن الصعب أن ترفض النظرية القائلة بأن هذه الحكايات نهلت إلى الجنوب من موطنها الأصلي وهو الدول الاسكندنافية، ثم استقرت في المناطق

Schauspielfuhrer, Bd. II, S. 172

(١)

(دليل المسرح — الجزء الثاني — ص ١٧٢).

(٢) المرجع السابق — الجزء الأول — ص ٧٢٢.

— Popular Tales from the norse, pp. 11-14.

(٣)

— Reallexikon der Germaniscen

Altertumskunde, Vol. I, p. 498/499.

المنتشرة حول جبال الألب، وبذلك فإن أصل (تل) يرتبط بتطور الحركة التجارية خلال ممر (سانت جوتارد)^(١) الشهير بجبال الألب والمؤدي إلى إيطاليا.

فمن الأرجح أن التجار الذين قدموا من الدول الشمالية في أعداد كبيرة في طريقهم إلى إيطاليا عن طريق سويسرا.. قاموا برواية هذه الأسطورة إلى سكان (التدورف) والذين نقلوها بدورهم إلى ضيوفهم كنوع من التسلية والترفيه. وللأسف لا توجد أصول خطية لهذه الحكايات^(٢).

ومن الناحية التاريخية. فإن هناك إثباتات بانضمام ولايات لوسرن وزيورج وجلاروس وتزوج إلى نواة الاتحاد السويسري الذي كان قائماً حينذاك ومتكوناً من: يوري وسيز وأونتروالدن وبأن الشعب السويسري استطاع أن يتغلب على كثير من الغزاة في مواقع مختلفة^(٣) وأنزل الحلفاء السويسريون الهزيمة بالهابسبورجيين عند سمباخ عام ١٣٨٦ وعند نافلز عام ١٣٨٨ واستطاعوا أن يتغلبوا على شارل الجسور دوق بورجنديا في موقعة موران عام ١٤٧٦ وفي موقعة نانسي عام ١٤٧٧. وقد أكسبت هذه الانتصارات الشعب السويسري شهرة

(١) افتتح مؤخراً أطول نفق في العالم يشق قلب جبل حوتارد ويبلغ طوله ١٦,٣ كم وقد استغرقت أعمال حفره وإنشائه حوالي ١٠ سنوات. تكاليف هذا النفق وصلت إلى حوالي ٤١٥ مليون دولار.

ويستخدم هذا النفق للسيارات على مدار العام وبالتالي يوفر على السائقين ساعتين من القيادة فوق مرتفعات سويسرا والألب والتي تصل إلى ٦٢٤٥ قدماً.

(٢) إحدى الدراسات القيمة عن أصول أسطورة (وليام تل) في:

Die nordischen, englischen und deutschenn Darstellungen des Apfelschubmotivs,

Vol. 2, pp. 117/174.

ووردت قصة في كتاب (منطق الطير - ص ٢٠٤) لمؤلفه فريد الدين العطار) مما يدل على أن موتيف «أصابة التفاحة» وجد في الأدب الفارسي: ... وعندما كان السلطان يرمي السهام في القصر، اضطرب ذلك الغلام خوفاً من الضر، حيث جعل السلطان هدفه تفاحة وضعها على مفرق الغلام، فما أن شق التفاحة بسهمه، حتى امتنع لون الغلام...
(٣) موسوعة تاريخ العالم. سبق ذكره.
أوروبا في العصور الوسطى. سبق ذكره.

بالقدرة العسكرية والبطولات والتضحية. وفي عام ١٤٩٩ وصلت سويسرا إلى قمة مجدها العسكري بتحقيق الانتصار على مكسميليان الأول^(١).

ويبدو أن أسطورة (تل) لها علاقة بهذه الانتصارات المتواصلة والبطولات الفذة التي اشتهر بها الشعب السويسري في ذلك الوقت. . لذلك فإنه من المنطقي أن يبرز في تلك المعارك الحربية قائد شجاع أو بطل. . حتى أن الاعتقاد بوجود هذا البطل فعلاً جعله يدخل في بعض الاعتقادات والطقوس الدينية. . فبنيت الكنائس تكريماً له. . وفي المكان الذي يقع على الشاطئ والذي يفترض أن (تل) هرب فيه من القارب الذي كان يستقله مع (جسلر) توجد كنيسة تسمى كنيسة (تل).

وهكذا استقرت أسطورة (تل) جغرافياً وتاريخياً في سويسرا لكي يفخر الشعب السويسري ببطلهم القومي ورمز حريتهم.

وبقيت أسطورة (وليام تل) كأحد المصادر الفولكلورية الهامة للأدباء يتناول كل أديب الناحية التي تروقه منها. . ورغم أن جوهر الأحداث والحقائق يسمح كثيراً للأديب بأن يطور من الوحدات الشعبية. . إلا أن ذلك يعتمد على طريقة تأثير الأديب بكل حدث وانفعاله به. . وهذا الانفعال قد يختلف من أديب إلى آخر - وهو الذي يحدد شكل العمل الأدبي وأهميته. وهكذا فإن أسطورة (تل) أصبحت موضوعاً غنياً للدراسة الأدبية في الدول الناطقة باللغة الألمانية. فظهرت أول معالجة لهذه الأسطورة في عام ١٥٠١ في صورة أغنية شعبية مجهولة المؤلف تسمى (أغنية تل - Tellenlied) وتبعتها بعد ذلك أعمال كثيرة في كل من سويسرا وألمانيا، كان من أهمها مسرحية (Urner Tell) في عام ١٥١١ ثم تبعتها مسرحية مجهولة المؤلف بعنوان (حوار في الجحيم - Dialog in der Hölle) ومثلت في ليبزج عام ١٦٧٢.

(١) وأصبح يطلق على الجنود السويسريين في ذلك الوقت اسم قاهر الملوك (أوروبا في مطلع العصور الحديثة - ص ٤٠٠).

وأحدث الأعمال الأدبية هي: (وليام تل - للقراءة المدرسية) (Wilhelm Tell Für die Schule) والتي صدرت لمؤلفها ماكس فريش عام ١٩٧١ في فرانكفورت بألمانيا الغربية^(١). ثم (تل - نشأة وانتقال أسطورة) (Tell, Werden und Wahren eines Mythos) لمؤلفتها (ليلي شتونزي - Lilly Stunzi) والتي صدرت في برن عام ١٩٧٢.

وهذا يدل على أن كل عمل من الأعمال السابقة نظر إلى الأسطورة من وجهة نظر معينة. . . ورغم كل ذلك يبقى الأديب الألماني فريدرش شيللر على قمة هؤلاء الأدباء بمسرحية (وليام تل)^(٢).

اعتمد (شيللر) كغيره من الأدباء على الجذور الأسطورية لشخصية (وليام تل) بأن جمع الأحداث المعاصرة ثم أحاطها بعناصر أخرى تمثل قوى خارقة للطبيعة لها تأثير على مجرى أحداث المسرحية تفتح المسرحية بأغنية رعاة البقر وهي أغنية شعبية للرعاة في أجزاء مختلفة من جبال الألب. . . وقد قصد (شيللر) بهذا الافتتاح الشعبي أن ينقل المشاهد رأساً إلى عالم الخيال والأساطير ودنيا الجن والشياطين:

Und es ruft aus den Tiefen
Lieb Kbahe, bist mein.
Ioh Locke den Schläfer,
Ich Zieh ihn hin ein

(١) بدأ (ماكس غريش) في إعادة كتابة رواية (وليام تل) بأسلوب حديث وأصدرها في صورة يوميات من (١٩٦٦ - ١٩٧١) ثم أصدرها في الكتاب المذكور.

أنظر: Lexikon Deutschsprachiger Schriftsteller Bd 1, S. 236.

(قاموس الأدباء المتحدثين بالألمانية - ج ١ - ص ٢٣٦).

Schiller: Wilhelm Tell Leipzig 1971.

(٢) (شيللر: مسرحية وليام تل - ليبزج ١٩٧١).

(ونادى صوت من الأعماق
با بني العزيز، أنت لي
سأقيد النائم
وأسحبه للداخل)

(الفصل الأول/ المنظر الأول)^(١)

وكأنه أراد بذلك أن يوضح بأن العالم الذي تتحرك فيه الشخصيات ليس
علماً حقيقياً. . ولكن رغم ذلك فإن الفصل الأول يوضح المجهود الذي أراد به
(شيللر) أن يجعل المشاهد يعيش في إطار حقيقي. .

فأثناء عودة الرعاة إلى بيوتهم بعد قضاء يوم طويل بين ممرات الألب يرون
الأمواج العالية للبحيرة وعلامات اقتراب هبوب عاصفة:

...der Sturm, ich mein, wird da sein, eh wir denken.

(أعني أن العاصفة ستحدث، قبل أن نفكر)

(الفصل الأول/ المنظر الأول)^(٢)

وفي تلك الأثناء يدخل (كونراد باوم جارتن) مسرعاً وهو أحد الجيران
المعروفين هارباً من ملاحقة حراس محصل الضرائب النمساوي وتبدأ التراجيديا
بأن يكتشف المتفرجون أن هناك قتيلاً ما. . وأن (باوم جارتن) هو القاتل. .
وبهذا المنظر استطاع (شيللر) إثارة مشاعر المتفرجين وشدهم إلى الأحداث التالية
وإبعادهم عن التفكير الأسطوري. . فنحن الآن أمام قاتل وقتيل؟ المقتول هو
أحد العاملين عند حاكم المقاطعة وهو المسؤول عن جمع الضرائب. .

(١) مسرحية ص ٧

(٢) مسرحية ص ٨

ذهب إلى بيت (باوم جارتن) وقام بإحصاء عدد رؤوس الحيوانات وتسجيل أنواع المحاصيل . . ثم قدر الضرائب المستحقة على (باوم جارتن) ويجد محصل الضرائب زوجة باوم جارتن على جانب من الجمال وربما فهم منها أنها تشجعه على التقرب إليها بقولها بأن زوجها ذهب يعمل في الغابة وأن عمله سيطول . . وهكذا وجد المحصل الفرصة مؤاتية ليطلق في محادثة للسيدة باوم جارتن فطلب منها أن تعد له حماماً ليستحم لأنه أتى من مسافة بعيدة . . وفي الغالب فإن كلمة (حمام) بما يصاحبها من تجهيزات مثلما نراها الآن لم تكن معروفة في القرن الرابع عشر خصوصاً عند هؤلاء الرعاة . . وبالطبع لم تفهم السيدة باوم جارتن ما يقصده محصل الضرائب وكان هذا مدعاة أخرى للمسرح والمسامرة بينها حتى هيات له وسيلة للاستحمام ببعض الأدوات المتيسرة عندها . . وربما فكرت السيدة باوم جارتن بأنها سترافق شخصاً نظيفاً ولأول مرة في حياتها من عائلة هابسبورج الملكية؟! وإلى هنا كان يمكن أن ينتهي هذا الحدث كمغامرة . . إلا أن تراجع السيدة غير مجرى هذه المغامرة . . فتركته وحده يستحم، وخرجت خلصة من البيت، وأسهرت إلى الغابة وشرحت الموقف لزوجها وأنها كانت معرضة للاعتداء عليها من هذا النمساوي لأنه طلب منها أشياء لا يمكن بهذه البساطة أن تقبلها. انه (طلب منها أشياء غير شريفة).

Ungebührliches von ihr verlangt.

(الفصل الأول — المنظر الأول) ^(١)

وبينما محصل الضرائب يتمتع بحمامة ومنثر على جسمه يدخل عليه (باوم جارتن) بفأسه ويضربه على رأسه وبذلك يدفع محصل الضرائب حياته ثمناً لمغامرته الرومانتيكية:

Mit der Axt hab ich ihm's Bad gesegnet

(بفأس، باركت بجثته الحمام)

(الفصل الأول – المنظر الأول) (١)

قلنا أن (باوم جارتن) أسرع هارباً من مطاردة حرس المحصل المقتول . .
فأسرع إلى شاطئ البحيرة يرجو أحد الصيادين وهو (رودى) أن ينقذه
وينقله إلى الشاطئ الآخر ولكن (رودى) يرفض أن ينقله بالقارب إلى الشاطئ
الآخر لأن الأمواج عالية والريح عاتية وهو يخاف على حياته .

وهنا يبدأ (شيللر) في تقديم شخصية (وليام تل) بالتدرج للجمهور،
فيتقدم (تل) ويعلن استعداده لتوصيل (باوم جارتن) بالقارب في هذه الأمواج
والرياح إلى الجانب الآخر من البحيرة . . وأظهر (باوم جارتن) امتنانه بقوله :

Mein Retter seid Ihr und mein Engel, Tell.

(أنت منقذي وملاكي، يا تل).

(الفصل الأول – المنظر الأول) (٢)

فيرد (تل) عليه مطمئناً:

Ich hab getan, was ich nicht lassen konnte.

(لقد فعلت ما لا أستطيع أن أتركه)

(الفصل الأول – المنظر الأول) (٣)

(١) المسرحية ص ١٠ .

(٢) المسرحية ص ١٢ .

(٣) المسرحية ص ١٢ .

ففي هذا الحوار البسيط القصير أظهر (شيللر) بعض صفات (تل) وهي البراعة في التجديف ثم الصفات البطولية المطلوبة وهي الاستعداد والتضحية ومساعدة الآخرين.

وانتشرت تفاصيل الحادث في المنطقة، لذلك خرج الحرس للبحث عن القاتل خرجنا من هذا المشهد بأربع شخصيات:

الشخصية الأولى وهي شخصية محصل الضرائب المقتول، ثم السيدة الجميلة التي دافعت عن شرفها وهي في نظر الحكام خائنة، وزوجها الذي هب يدافع عن شرفه وهو في نظر الحكام هارب من وجه العدالة ولا بد أن ينال عقابه ثم أخيراً (وليام تل) كما لو كان مرسلاً من الآلهة لإنقاذ (باوم جارتن).

ثم يواصل (شيللر) تقديم (وليام تل) لنعرف المزيد من جوانب شخصيته، فبعد أن يأتي المنادي ويعلن عن وضع قبعته على عمود خشبي في أحد ساحات مدينة (التدورف) وأنه يجب على كل من يمر أمامها أن ينحني تحية واحتراماً، نجد كثيراً من تعليقات (تل) التي تدل على الاعتراض وعدم الرضا على هذا الاجراء:

Das schwere Herz wird nicht durch worte leicht.

(الكلمات لا تخفف القلب الثقيل).

Die einzige Tat ist jetzt Geduld und Schweigen.

(العمل الوحيد الآن هو الصبر والصمت).

(الفصل الأول – المنظر الثالث^(١))

ولا يتوقف (شيللر) عن إبراز عيوب النظام الاقطاعي بأسلوب ساخر من خلال الحوار بين (تل) وابنه الأصغر (فالتر) عندما كانا في طريقهما إلى

(١) المسرحية ص ٢١.

(الدورف) . . فهنا تظهر العائلة المالكة بأنها تملك كل شيء : مجاري المياه وما بها من أسماك، الغابات وما تحويه من حيوانات وطيور، حتى البحار وما بها من ملح.

Das Feld gehört dem Bischof und dem König.

Dem Herrn gehört das Wild und das Gefieder.

Der Strom, das Meer, das Salz, gehört dem König.

(الفصل الثالث – المنظر الثالث) (١)

وعندما وصلا إلى مدينة (آلدورف)، نبه الابن أباه إلى القبعة التي على العمود . . ولكنه لا يكثر لها ولا يعيرها أي اهتمام:

(ماذا يعينان القبعة؟

مقال، هيا بنا نمشي!)

Was Kummert uns der Hut?

Komm, Lab uns gehen!

(الفصل الثالث – المنظر الثالث) (٢)

إن هذا التحدي لأوامر (جسلى) حاكم الولاية يعتبر أيضاً بطولة من (وليام تل)، ولكنه يؤمن بأنه من الأفضل ألا يقع فريسة في يد الحاكم بسبب شيء تافه كهذا . . فهو ينظر نظرة بعيدة . . أنه أعزل . . وزملاؤه وجيرانه يحتاجونه . . لذلك يحاول أن يعتذر للحراس بأن ما حدث (كان عن غير قصد منه – Aus Unbedacht).

(الفصل الثالث – المنظر الثالث) (٣)

(١) المسرحية ص ٦٦ .

(٢) المسرحية ص ٦٧ .

(٣) المسرحية ص ٦٩ .

وتتوالى أحداث المسرحية كما هي في الأصل الشعبي بأن يأمر (جسلىر)
(تل) أن يصوب سهمه على تفاهة موضوعه على رأس ابنه (فالتر) وهو يبعد عنه
ثمانين خطوة:

Du wirst den Apfel schieben von dem Kopf
des Knaben... auf achtzig Schritte.

ولا تجدي اتصالات الناس بالحاكم أن يتنازل عن رأيه، ونجح (تل) في
إصابة التفاحة وقسمها إلى نصفين وهلل الناس:

(السهم أصاب التفاحة)
(الولد ما زال على قيد الحياة)

Der Apfel ist getroffen, Der Khabe lebt.

(الفصل الثالث – المنظر الثالث)^(١)

ثم تبلغ بطولة (تل) قمتهما عندما اختبأ خلف شجرة في الغابة وصوب
سهمه فأصاب (جسلىر) في قلبه فمات:

Mitten ins Hers hat ihn der Pfeil getroffen

ولا يستطيع أن يصوب مثل هذا السهم بمهارة ودقة إلا (تل) نفسه لذلك
عرف (جسلىر) أن هذا هو سهم (تل) الذي قتله:

Das ist Tell's Geschob.

(الفصل الرابع – المنظر الثالث)^(٢)

(١) المسرحية ص ٧٠.

(٢) المسرحية ص ١٠٠.

... (تل) بطلاً قومياً فعلاً... لقد «عاش» ينتقم لنفسه...
والأسرة (باوم-جارتن) ولكل أسلحه وعشيرته... لكل ولاية (بين-زير) ويعلم أن الله
ساعده في ذلك:

Gold hat geholt.

(الفصل الخامس – المنظر الثاني) ^(١)

لذلك استحق أن يهتفوا باسمه في نهاية الرواية ^(٢)

(فليعيش تل، المنقذ والمخلص)

Es lebe Tell-Der Schutz und der Erreter.

توغل الشاعر في أعماق التاريخ السويسري واستطاع أن يستحضر البيئة
السويسرية بطبيعتها الغنية بالمناظر الطبيعية، والفقر والحاجة التي عاش فيها
الشعب السويسري، كما تصورها، رغم أنه لم يقم بأية زيارة إلى سويسرا،
متخذاً هذه البيئة بطقوسها وعاداتها إطاراً لمسرحيته.

على أنه لم يتقيد بحرفية أحداث الأسطورة، فقد استطاع (شيللر) أن
يستفيد من صورة (تل) التي استعارها من التاريخ، وأضاف إليها تصورات
الناس وحكاياتهم عنه، أي أنه نجح في مزج المنابع المختلفة الأصول سواء منها
الميثولوجية أو التاريخية» ^(٣).

تحفل المسرحية بعدد من الأبطال... فقد اجتمع أحسن الرجال من
الولايات الثلاث وهم:

Walter Fürst, Werner Stauffacher, Arnold von Melchtal

(١) المسرحية ص ١١٣.

(٢) المسرحية ص ١١٨.

(٣) نظرية الأدب ص ١٥١.

والذين تسبب الحاكم (Landenberger) في سمل أعين آبائهم ومعهم ثلاثون آخرون وجددوا العهد لإحياء رابطة الحرية القديمة في (روتلي - Rüttli) وهي موعى منعزل مهجور.

إلا أننا نلمح دلالة رئيسية في معظم عناصر المسرحية.. إذ أن (تل) هو البطل المحوري للمسرحية وهو أداة الشاعر في الكشف عن عيوب السلطة المتمثلة في رجال الدين والحكم الملكي المطلق وأن الشخصيات والأحداث التي حاول (شيللر) توظيفها.. إنما ارتبطت كلها بهذا الهدف.

أما الدلالات الثانوية فإن أبرزها ماورد في المسرحية ولاحظناه من أن (شيللر) قدم شريحة من شرائح هذا المجتمع البسيط وهي شريحة الرعاة والفلاحين بقيمهم الأصيلة، فهم بمثابة العائلة الواحدة، وهو بذلك يرسم صورة خيرة لأبناء قريته العاملين الكادحين، أما «جسلر» ويطانته، فهم ظلمة أشرار، يريدون العبث بأعراض النساء واستباحة حقوق الناس البسطاء.

وهذا الموقف تأكيد لإحساس (شيللر) الطبقي.. وهو لا يكتفي بإظهار هذا الشعور، بل يبحث هؤلاء الرعاة الفقراء المساكين المظلومين الذين يتعاطف معهم، بالتحرك لتغيير واقعهم ومعاقبة المستغلين لهم.. لذلك يقوم (تل) بقتل (جسلر) مثلما قام (ناوم جارتن) بقتل الصراف من قبله دفاعاً عن عرضه. وكما هو معروف في القصص الخرافية الشعبية^(١) فإن هناك قوى غيبية خفية تساعد البطل في تحطيم الصعاب وتحقيق الغايات. وفي حالة (وليام تل) فإن هناك قوة غيبية ساعدته على تحقيق الإصابة.. بالتأكيد ليست قوى سحرية بل هي «القدرة الإلهية».. وإلا فإنه من غير المعقول أن ينجح (تل) في إصابة التفاحة وهي على بعد ثمانين خطوة وموضوعة على رأس ابنه..

(١) - الأساطير. د. أحمد زكي ص ٥٠ وما بعدها

- علم الفلكلور. كراب ص ٣٠ وما بعدها.

وقد شفت المشاهد عذ (تل) من صموبة أو عراة هذا الطالب الذي أراد (جسل) .. لكن (تل) يخفقه حتى لا يهمل عريمه، ولا يملك المصير ميتة، إلا الحماس لهذا النوع من البطولة.

غير أن هذا التجدي وغيره من الأحداث السائدة هي التي تشير إلى الواجبات التي أنيطت بالبطل (تل) لمساعدة قومه في تحقيق الغايات القومية والإنسانية. أن (تل) كبطل ملحمي يتمتع بالمزايا الجسمانية والعقلية، فهو يستطيع التجديف في أصعب الأحوال الجوية.. ويستطيع التحكم في الرمي بالسهم.. وهو يستعمل طريقة (الكر والفر)، فمواجهة الخصوم ليست بالسلاح فقط.. لكن ملازمة العقل مع الشجاعة أمر واجب حتى يتم النصر. ان اعتذار (تل) وتوسله لجسلر بالعفو عنه لا يصدر عن ضعف أو هزيمة. لكن (تل) قلبه قلب أب ولا يحتمل أن يرى السهم ينفذ في جزء من أجزاء جسد ابنه.. إذا ما أخطأ التفاحة..

وقد حرر (تل) بضربته المميتة التي أصابت (جسلر) الشعب السويسري من حاكم ظالم وأعطى بذلك الضوء الأخضر للثورة العامة وسمي بذلك المنقذ. وهو النموذج والمثال الذي تطمح الجماعة لتحقيقه^(١) فقد تمثلت فيه القدرة على حماية الأهل والمال والدفاع عن الضعيف.

وبينما تتحد الطبقات البرجوازية والفلاحية والعمالية فيما بينها، تقف طبقة النبلاء حائرة بين رفض ولائها لسادتها الاقطاعيين والانضمام إلى حركة الجماهير وبذلك تعيش مع بقية الشعب، أو خيانة المصالح القومية وبذلك يؤلبون عليهم كل طبقات الشعب الثائرة.. إن الأمر كان يحتاج إلى طريق طويل صعب حتى قرر في النهاية (أولريش رودنز – Ulrich Rudenz) وهو ينتمي إلى طبقة النبلاء – من خلال ميول وطنية قليلة استعداده لتحرير عبيده والتخلي عن نظامه الاقطاعي.

إن اللغة كانت عاملاً أساسياً في تمييز سلوكية بعض الشخصيات . فقد كانت كلمات وجمل (وليام تل) كأنها موزونة بميزان . فهي قصيرة ومؤدية للغرض على أكمل وجه . وهو كشخص بسيط نجده يستعمل بعض الأمثلة الشعبية أو جملاً جرت بعد ذلك مجرى الأمثلة الشعبية :

Früh übt sich, was ein Meister werden will.

(يتدرب مبكراً من يريد أن يكون أسطى)

Die Axt in Haus erspart den Zimmermann.

(الفأس في البيت، توفر عليك النجار).

أما (جسler) الحاكم المتسلط فجميع جملة عبارة عن أوامر وتخلو من أي حس إنساني .

وقد أبدع (شيللر) في وصف الطبيعة السويسرية الجميلة وحياة الناس وأنشطتهم اليومية باستعمال الجمل الحيوية الطويلة — رغم أنه لم يذهب أبداً إلى سويسرا .

إن الطبيعة الأسطورية الرمزية لقصة (وليام تل) هي أحد الأسباب الرئيسية لانتشارها وشهرتها في بلدان مختلفة كما أن الموسيقىار الايطالي (روسيني) مجده في أوبرا شعبية^(١) . ف شخصية (تل) هي رمز لكل بطل قومي يحاول تخليص بلاده من الذل والاستعباد .



(١) كبرز الحكايات العالمية ص ٢٩١

المصادر

أولاً - العربية:

- (١) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم - ترجمة محمد مصطفى زيادة الجزء الثالث - القاهرة ١٩٦٢.
- (٢) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا - العصور الوسطى. التاريخ السياسي. الجزء الأول القاهرة ١٩٧٢.
- (٣) فريد الدين العطار النيسابوري: منطق الطير. ترجمة الدكتور بديع محمد جمعة الجزء الأول. بيروت ١٩٧٩.
- (٤) الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي: أوروبا في مطلع العصور الحديثة. الجزء الأول. القاهرة ١٩٦٩.
- (٥) الدكتور أحمد زكي: الأساطير. بيروت ١٩٧٩.
- (٦) الكسندر كراب: علم الفولكلور. ترجمة أحمد رشدي صالح. القاهرة ١٩٦٧.
- (٧) نظرية الأدب: سلسلة الكتب المترجمة. دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨٠.
- (٨) كبرى الحكايات العالمية: لويس أونترماير - ترجمة غانم الدباغ. سلسلة الكتب المترجمة - دار الرشيد للنشر بغداد ١٩٨١.

ثانياً - الأجنبية:

- (1) Schauspielführer, Bd. I, II, Berlin 1972.
- (2) G.W. Dascent: Popular Tales from the Norse, London.
- (3) J. Hoop: Reallexikon der Germanischen Altertumskunde, Bd. 4, Strasburg 1919.
- (4) He. de Boor: Die nordischen, englischen und deutschen Darstellungen des Apfelschubmotivs, Berlin 1966.
- (5) Max Frisch: Wilhelm Tell Für die Schule, Frankfurt a/M. 1971.
- (6) Lexikon Deutschsprachiger Schriftsteller, Bd. I, Leipzig 1972.
- (7) Lilly Stunzi: Tell, Werden und Wandern eines Mythos, Bern 1972.
- (8) Schiller: Wilhelm Tell. Schauspiel, Leipzig 1971.
- (9) Bramer-Wertheim: Studien zur deutschen Klassik, Berlin 1960.